ذكريات عن رمضان مع اختلاف الزمان والمكان.

محمود عبد المنعم مراد

التحرير

هل هلاله . فرحبا به . شهر يتميز عن سائر الشهور فى نمط الحياة . ومواعيد اليقظة والنوم ، وساعات العمل والراحة . بحيث يصبح له طعم خاص . سواء جاءنا فى عز الصيف أو قسوة الشتاء . أو فى الربيع أو الخريف . إنه هو هو رمضان الكريم اللطيف المكرم من بين سائر الأيام . تتوثق فيه الصلة بين الانسان والخالق وبين الناس بعضهم وبعض . وتستعد له النفوس والأرواح . كما تستعد الأبدان . ويجمع بين متع الدين والدنيا . ويأخذ منه كل امرئ بالنصيب الذى يرضاه .

وقد صاحبت رمضان منذ الطفولة الباكرة . وعرفته فى الريف كما عرفته فى الحضر . وعاشرته فى مصر . وفى غيرها من بلاد العرب . وأياما قضيتها منه فى أوروبا . وجربته حين كان يومه قصيرا فى الشتاء . طويلا مرهقا فى الصيف . وذقت حلاوة متعته ونحن أطفال صغار نحمل فوانيس ملونة . نخرج بها بعد صلاة العشاء فى أزقة القرية . وشموعها الناحلة لا تكاد تضئ الطريق . وهأنذا قد طال بى العمر . لأشهد أنواعا أخرى من متعته منتظرة . تحملها الاذاعة والتليفزيون . وتنتظرها الملايين بعد الافطار . لتحل فوازيرها المتوقعة .

ومهما يتقدم العلم والفن . فلن يسبقا الطبيعة . لا يكاد يخالجنى شك فى أن طعم رمضان فى الأيام الخوالى . كان ألذ وأطرف وأسرع دخولا الى القلب . لم يكن الاحتفال به مصطنعا . فلا مؤلف ولا محرج ولا ممثلة حسناء . بل يجتمع الصبية أمام مسجد القرية . قرب الأذان . يصيحون ويلعبون وتختلط صيحاتهم بنداءات باعة الفول والحلل والخرجير . فإذا انطلق المدفع صاحوا جميعا صيحة واحدة وبدأ الأذان . وحملت الطرقات من كل انسى . وعاد الكل صغارا وكبارا الى منازلهم يتناولون طعام الافطار . وبعد قليل تأتى صلاة العشاء . ووراءها التراويح . ويخرج الصبية الى الطرقات يطوفون بالقرية مغنين فرحين . بينما يجتمع الكبار فى بيوت الأعيان . يستمعون الى تلاوة القرآن . ورغم هذه المتع البدائية . فقد كان الطعم طازجا . والشعور بالسعادة الغامضة صادقا أصيلا . ولست أعرف ماذا يحمله رمضان اليوم فى مدينة الملايين الستة أو السبعة . من متع حقيقية ومشاعر خاصة . ولكنى على أية حال لا أجد فيها ما يعادل متع الطفولة البريئة . فى القرية الصغيرة بشموعها الباهتة .

ولست أحسب أنى عرفت بلدا عربيا أو اسلاميا يحتفل بهذا الشهر المبارك . كما يحتفل به مصر . فقد حضرت أياما منه فى بلاد عربية أخرى . فما شعرت به كما كنت أشعر به فى بلدى . صحيح أننى فى الكويت مثلا لا يمكن أن أرى انسانا مفطرا فى الطريق العام . ومع ذلك فانى أكاد أوقن بأنه ما من شعب عربى مسلم أشد تدينا من الشعب المصرى الذى يفطر أفراده فى المكاتب والطرقات . ذلك أنى بعد الاقامة هناك والتقصى . علمت أن معظمهم يفطرون خفية فى منازلهم . ولكنهم يتزلون العقاب بأى امرئ يجرؤ على أن يدخن فى الشارع سيجارة .

وفى بغداد . عجبت لأمر الناس هناك يتظاهر الجميع بالصوم فى النهار . فلا تكاد تجد مفطرا . ولكنى فى المساء . وجدت مشارب الخمر مفتوحة الأبواب . والناس يعبون منها عبا . ولا جزاء ولا عقاب .

والصوم فريضة لها طعم خاص ووضع متميز . فقد ربانا أهلنا على أن الصيام دليل على الرجولة والصبر واحتمال المشاق . ولهذا كان أكثرنا يصوم وهو فى السابعة من عمره . حتى ولو لم يكن يعرف الصلاة .

ومن مفارقات المتغيرات التى طرأت على حياتنا الحديثة أن المجمعات الاستهلاكية تغلق أبوابها يوما فى الأسبوع الا فى رمضان . فالاجازات تلغى . والأبواب تفتح طول النهار . ليتزود الناس بمزيد من ألوان الطعام والمشهيات . حتى ميزانية الدولة تفرد للشهر المبارك قسطا أكبر من المعتاد لاستيراد اللحوم والياميش والحلوى . ورغم ذلك فان الشهر الكريم لايزال له طعم ولون ورائحة . وان اختلفت عما كانت أيام الطفولة والصبا .

ومنذ ألف وأربعمائة عام . والناس يحتفلون بهذا الشهر . أكثر من احتفالهم ببقية الشهور . وسيظلون يحتفلون به أبد الدهر . وان تغيرت مظاهر الاحتفال . بتغير الزمان والمكان .

وكل عام ونحن جميعا بخير .

التعليم الجامعى

فيما مضى من الزمان . فى أواخر الثلاثينات وخلال الأربعينات . كان التعليم الجامعى جامعيا حق . كان الأساتذة كبارا . وكانت أعداد الطلاب محدودة . وكانت الصلة قائمة متينة بين الأستاذ وطلابه .

وعلى سبيل المثال . أذكر أن أساتذتى فى كلية الآداب . كانوا فى ذلك الوقت هم : طه حسين ومصطفى عبد الرازق . وأحمد أمين وابراهيم مصطفى وأمين الخولى وعبد الوهاب عزام وشفيق غربال وابراهيم مدكور .

د. ابراهيم بيومى مدكور كان الأساتذة كبارا

الى آخر هذا الجيل الرائد من الأساتذة الأجلاء . وكنت فى قسم اللغة العربية واللغات الشرقية . حيث كان عدد « الدفعة » التى أنتمى اليها فى هذا القسم أقل من عشرين طالبا . أى أن عدد الأساتذة الذين كانوا يعلموننا . كان أكبر من عدد الطلبة الذين يتلقون منهم العلم . وهكذا كانت العلاقة وثيقة بين الأستاذ والطلبة . يعرفهم واحدا واحدا باسمه وشكله وصوته وقدراته . وظروفه العائلية والاجتماعية .

أما الآن . فالصلة بين الطلبة والأساتذة معدومة . انها صلة بين الطلبة والمبكروفون الذى يلقى الأستاذ فيه محاضرته . أو بين الطلبة والكتاب الجامعى المقرر عليهم شراؤه واستذكاره .

وبعد تخرجى أنشأت الكلية بفضل المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام . معهدا عاليا للغات الشرقية . فالتحقت به . وكنا ثلاثة فقط . وفى نهاية العام نجح اثنان . ولم أتمكن لظروف عائلية خاصة من دخول الامتحان . فبقيت فى العام التالى فى السنة الأولى من المعهد . ولم يتقدم أحد آخر من الخريجين للالتحاق بالسنة الأولى . وبذلك أصبحت الطالب الوحيد بها .

وكنت فى ذلك الوقت . كما كان غيرى . لا يكاد يجد أدنى فرصة للعمل بعد التخرج . ولم يكن لنا من ملاذ سوى أساتذتنا نستعين بهم ليجدوا لنا أى عمل نعيش منه . وبسبب هذه المساعى فى طلب الرزق . لم أكن مواظبا بشكل منتظم على حضور محاضرات معهد اللغات الشرقية لأن طلب العيش كان أهم وأخطر .

وكنت قد طلبت الوساطة من عميد الكلية وقتذاك المرحوم الأستاذ أحمد أمين صاحب فجر الاسلام وضحاه وظهره . كما طلبتها من كثيرين غيره . وذات يوم وصلنى خطاب من الكلية . ينبئنى فيه أن السيد عميد الكلية يطلبنى لمقابلته فى الساعة كذا من يوم كذا . وكدت أطير من الفرح . ولم يدر بخلدى سوى أن الأستاذ العميد وجد لى وظيفة فى جهة من جهات الدولة . وأسرعت للقائه فى الموعد المحدد . وكان طبى خاليا . اذ تبددت أحلامى لأنه طلبنى ليبلغنى أن أساتذة معهد اللغات الشرقية يشكون من أنهم يواظبون على حضور المحاضرات فى مواعيدها المقررة . بينما أتغيب عنها فى كثير من الأحيان .

وقال « انى سألغى هذا المعهد » . فقلت له بلغة حياء طائشة من الحزن والغضب « ان سعادتك لا تستطيع الغاءه لأنه أنشئ بمرسوم ملكى . ولا يمكن الغاؤه الا بمرسوم ملكى آخر . قال سألغى السنة الأولى التى أنت وحدك مقيد بها . قلت ولا هذا أيضا . فالقوانين لا تجيز ذلك . قال اذن سأفصلك . قلت ان سعادتك لا تملك فصلى . بسبب الغياب . فالغياب وفقا للقانون يمنعنى من ندبة الامتحان . ولا يستوجب فصلى » . فتمهل رحمه الله قليلا ثم قال « اذن وما العمل ؟ يا بنى أرجو أن تترفق بأساتذتك الكبار الذين يأتون اليك بعد الظهر فلا يجدونك . ويعودون الى بيوتهم فى حلوان والعباسية الشرقية والقلعة دون أن يؤدوا واجبهم نحوك » . فسألته وما العمل .

قال عندى الخراج أرجو أن توافق عليه قلت له تفضل ! قال اذا كنت تنوى الغياب . فعليك أن تتصل بأساتذتك تليفونيا قبل موعد المحاضرة بوقت كاف لتعتذر لهم عن عدم الحضور . فلم يسعنى الا أن أوافق على هذا الحل . وبذلك استراح الجميع ! وهكذا كانت حياتنا الجامعية !

من العام الى الخاص

ومن زملائنا فى هذه الدفعة ، الصديق الأستاذ الدكتور محمود الشيطى . الرئيس السابق للهيئة المصرية العامة للكتاب . كان من المبرزين فى دراسته العاكفين على البحث والانتاج الأدبى شعرا ونثرا . سافر الى العراق مدرسا بعد التخرج . ثم عاد ليعمل فى مكتبة جامعة الاسكندرية عند بدء انشائها . ثم سافر الى أمريكا . حيث غير مجرى حياته . فبدلا من الاستمرار فى دراسة الأدب العربى واللغات الشرقية ، رأى أن يتخصص فى علم المكتبات . وحصل على درجة الدكتوراه فى هذا العلم من جامعة شيكاجو . فكان رائدا هو الآخر فى هذا الميدان .

وبعد عودته ، تولى مناصب شتى ، خارج الحكومة . ثم عين فى أواخر الستينات مديرا عاما لدار الكتب . ثم خلف الدكتورة سهير القلماوى فى رئاسة الهيئة المصرية العامة للكتاب . وظل فى منصبه هذا حتى رأى أن يطلب احالته الى المعاش ليتفرغ للعمل قطاعا خاصا . بعد أن قضى بضع سنوات على رأس هيئة فى القطاع العام .

وفى بداية هذا العام استطاع مع بعض زملائه وتلاميذه أن ينشئ شركة باسم « المركز العربى للبحث والنشر » . وبالعمل الدائب والخبرة الطويلة والتخصص الجامعى ، ورغم كل الظروف غير الموائية للعمل فى صناعة الكتاب الآن استطاع أن يخرج للعالم العربى مجموعة من الكتب القيمة ، منها كتاب « البحرية الليبرالية فى مصر من ١٩٢٢-١٩٣٦ » للدكتورة عفاف لطفى السيد وكتاب « التراث والتجديد » للدكتور حسن حنفى ، ومسرحية « بقية الزمن » للأستاذ نعمان عاشور . كما أصدر طبعتين جديدتين مصورتين لكتابين من أهم الكتب الأدبية . هما « ديوان المتنبى » وكتاب « البخلاء » للجاحظ .

وهو الآن ، يستعد لاصدار مجموعة أخرى من الكتب . وأنا أرجو له التوفيق والاستمرار والصبر . فالصعاب التى يواجهها الناشرون الآن أكثر مما يتصوره الناس ، بالرغم من كثرة ما كتب ونشر فى هذا الموضوع .

ولست أريد الافاضة فيما يعانى منه الآن . وما نسميه بأزمة الكتاب . لأن الموضوع أصبح ثقيلا على النفس ، ولأن الحلول أبعد ما تكون عن استطاعة الأفراد . أو استطاعة الدولة نفسها . أعانه الله ، وأعاننا معه !

الأسفار الخمسة

ولم تنقطع صلتى بزملائى فى الدراسة ، رغم مرور الأحقاب ، وتفرق الطرق ، واختلاف المصائر . ومن بين الزملاء الأعزاء الذين لم يكن يفارق أحدهم الآخرين . الصديق الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس ، الذى تخصص فى الأدب الشعبى ، وأصبح أول أستاذ له فى الجامعة .

وأنا أذكره اليوم لأنه تفضل باهدائى آخر كتاب صدر له ، وهو كتاب « الأسفار الخمسة » . وهو كتاب قام بترجمته الى العربية ، ووضع مقدمة له للتعريف به ، كما أنهاه بدراسة مستفيضة شائقة . و« الأسفار الخمسة » ، أو « خزائن الحكمة الخمس » وثيقة هندية قديمة ، كتبت باللغة السنسكريتية . تضم مجموعة من الحكايات . تبين أنها يمكن أن تكون الأصل الذى أخذ منه الكتاب المعروف باسم « كليلة ودمنة » . وقد استطاع الأستاذ « فرانكلين ادجرتون » أستاذ الأدب السنسكريتى (الهندى القديم) بجامعة ييل الأمريكية أن يحصل على النسخة الأصلية لهذا الكتاب ، فتوفر على ترجمتها الى اللغة الانجليزية ، ومنها ترجم لنا الصديق الدكتور عبد الحميد يونس هذا الكتاب الهام ، الذى كان له شأن عظيم فى الآداب العالمية ، حتى أن الأستاذ ادجرتون يقرر أنه لا يعرف كتابا آخر قد حظى بالانتشار فى أرجاء العالم مثل هذا الكتاب . ولا يفضله إلا الكتب المقدسة . فقد ترجم عن غير لغته الأصلية الى أكثر من خمسين لغة . ومنذ القرن الحادى عشر الميلادى ، بلغ هذا الأثر الأدبى فى رحلته الأقطار الأوربية ، وقبيل القرن السادس عشر عرفته اللغات اليونانية واللاتينية والاسبانية والايطالية والألمانية والانجليزية والتشيكية والسلافية . وعرف منذ ذلك فى مشارق الأرض ومغاربها ، من جاوة الى أيسلندة .

واحتل هذا الكتاب مكانة سامية فى الهند ، موطنه الأصل ، ولم يكن هناك أثر أدبى يدانيه فى الذيوع . وعنه أخذ كتاب كليلة ودمنة ، الذى قام بترجمته عبد الله بن المقفع ، وأصبح هو أكثر ذيوعا وانتشارا . وعرفه الأوربيون كتابا يستهدف التهذيب والتعليم وصقل الموهبة الأدبية ، فى سياق حكايات عن الحيوان . ترمز الى السلوك الانسانى ، وخاصة فى الأخلاق والسياسة .

وقد ختم الدكتور يونس كتابه الهام بدراسة مقارنة دقيقة ، بين الأصل السنسكريتى للأسفار الخمسة ، وكتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه ابن المقفع . ولا شك ان هذه الدراسة تهم المولعين بدراسات الفولكلور وتضيف الى المكتبة العربية جهدا أصيلا يستحق التقدير .

أمين الخولى
من اساتذة كلية الآداب

د. عبد الحميد يونس
متخصص فى الأدب الشعبى

د. سهير القلماوى
رأست الهيئة العامة للكتاب

أنظر حولك

نظر الرجل حوله . فالجميع الآن ينظرون حولهم . ودعا الله أن يمتع زوجته بالسلامة . فقد جاءها المخاض . وهى تنتظر المولود . وستحمد الله على من يرزقها به . ذكرا كان او أنثى . ودنت ساعة الميلاد . وتحملت الزوجة آلامها . وطلقة ثم أخرى . وأفاقت . ونظرت هى الأخرى حولها . واذا بها لا تجد مولودا واحدا . بل ستة أطفال يصرخون فى آن واحد . وحمدت ربها على فضله . والله يرزق من يشاء بغير حساب . نظرنا حولنا أو كففنا عن النظر !

الكنز المفقود

عشت ولله الحمد – سواء كان الحمد على نعمة أو مكروه – حياة طويلة مر حدث فيها ، أى حياة عريضة . وجربت ما كنت أحلم بتجربته منذ طفولتى .

حتى تجربة السجن . خطر فى ذات يوم أن أكتب رواية طويلة . وكنت أتحدث مع بعض الأصدقاء فى ذلك . وسألنى أحدهم ولم لا تكتب . قلت ان تجاربى لم تكتمل بعد قال انك جربت أكثر مما ينبغى . قلت « لاتزال تجربة السجن » وكان ذلك فى وسط الخمسينات . وبعد أيام قلائل . كنت قد حظيت بهذه التجربة

وتقلبت بين الفقر والغنى مدا وجزرا . وسافرت الى بلاد كثيرة تمنيت أن أراها . واشتغلت مدرسا ومزارعا وموظفا وصحفيا وكاتبا وناشرا . هذا بخلاف صنائع كثيرة شتى . وخالطت كل الناس . من أسفل الدرك الأسفل . الى أعلى عليين . وعرفت كثيرا من رجال المال والسياسة والأدب والفن . ومن التجار والفلاحين والصعاليك . وعشت فى القرية أعواما طويلة . كما عشت فى وسط المدينة . وفى ضواحيها . وقرأت وكتبت . وفكرت منطويا على نفسى منفردا أربعة أشهر لا أرى أحدا ولا أتكلم ولا أقرأ ولا أسمع ولا أتحرك . كان سجنا منفردا رهيبا مظلما . وفى كل هذه التجارب والمتع والمحن والارتفاع والانخفاض . وفى دورة الأمل والتفاؤل . ونكسة الاكتئاب والتشاؤم كنت دائما أبحث عن شىء غامض . عن قيمة تجعل للحياة معنى . وأخذت أقارن بين الفضائل والقيم جميعا . أريد أن أعرف أيها أعسر منالا . الشجاعة أو الكرم أو التضحية أو الكرامة أو الحب أو أية قيمة أخرى . وبعد طول العمر وكثرة الضحك والبكاء – نعم أحيانا يجئ البكاء – يبدو لى أن أعظم ما يمكن أن يتصف به المرء فى هذه الحياة التى لا نعرف كم تطول ومتى تنتهى . أن اعظم ما فيها هو الصدق . الصدق مع النفس أولا . ومع الناس ثانيا . فاذا تريد ؟ .